ISSN: 1999-5601 (Print) 2663-5836 (online)

Lark Journal

Available online at: https://lark.uowasit.edu.iq

*Corresponding author:

Dr. Rahim Abdul Ali Farhan

Directorate of Education, Wasit Governorate

Email:

raheemabdali66@gmail.com

Keywords:

poetry, goodness, evil.

A R T I C L E I N F O

Article history:

Received	31 Dec 2021
Accepted	21 Sep 2023
Available online	1 Oct 2023

The Poetry of the Sacred and the Profane in the Works of Adib Kamal Al-Din

A B S T R A C T

Poetry is often considered the gateway to the inner world of its creator, expressing both the sacred and profane. In many instances, the former surpasses the latter due to the inherent human inclination towards goodness. Poetry sketches the path of life and builds aspirations upon it. In light of this, the study focuses on the poetry of our esteemed poet and literary figure, Kamal Al-Din, examining two main aspects. The first aspect represents the manifestation of goodness and its calls in his poetry, particularly in terms of liberation, joyful living, resolving conflicts and disputes among fellow citizens, and rejecting all forms of evil that have prevailed due to the strange ideologies imposed upon our Arab society. The poetry utilizes Sufi symbols, symbolizing points and letters, through which the Sufi poets have conveyed meanings, enriching the poetic structures with the intended significance. This approach intensifies the semantic density, which the poet emphasized in his poetic mission, through the struggle between good and evil, referred to as "the sacred" and "the profane" in his poems. The study adopts an aesthetic method, delving into the poet's texts and deciphering the underlying concealed structures, which granted artistic potential to express the hidden meanings embedded within his verses. The study concludes with a summary of the key findings.

© 2023 LARK, College of Art, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/lark.Vol3.Iss51.2298

المقدس والمدنس في شعر أديب كمال الدين الشاعرية ، الخير ، الشر

أ.م. د. رحيم عبد علي فرحان/ مديرية تربية محافظة واسط

الخلاصة:

لعل الشعر هو بوابة العالم الداخلي لصاحبه يجهر بالمقدس تارة و بالمدنس تارة أخرى , ولكليهما في أحيان , وكثيراً ما يتفوق الأول على الآخر ؛ لما للنفس البشرية من توق إلى الخير وهو يرسم طريق الحياة ويبني طموحاته عليها ؛ لذا جاءت دراسة شعر شاعرنا أديب كمال الدين على مبحثين الأول المقدس الذي يمثل ما شاع في أشعاره من مظاهر الخير ودعواته إليها لاسيما دعواته للتحرر والعيش بسعادة وأمان ، وحل الخلافات والنزاعات بين أبناء البلد الواحد , ونبذ جميع مظاهر الشر التي تربعت على عرش الواقع المأزوم

نتيجة الأفكار الغريبة المتأتية من الآيدلوجيات الطارئة على مجتمعنا العربي مستعملاً رموزه الصوفية التي حاكى بها شعراء التصوف برمزي النقطة والحرف ؛ ليضمر من خلالهما المعاني التي ناءت بتلك الرموز ؛ مما جعل التكثيف في البنى الدلالية يزخر بالمعاني التي ينشدها الشاعر في رسالته الشعرية ، من طريق الصراع بين الخير والشر اللذين أشرنا إليهما بمصطلحين ملائمين هما : (المقدس والمدنس) في شعر الشاعر؛ وقد عالجت الدراسة على وفق منهج جماليات التلقي قراءة نصوص الشاعر واستنباط البنى الخفية المضمرة في أساليبه والتي منحها طاقات فنية للتعبير عن المضامين المضمرة في نصوصه. ثم انتهت الدراسة بخاتمة تضمنت أبرز النتائج .

المقدمة :

الشعر هو مزية الإنسان حين تعتصره لواعج الزمن , فليس له إلا أن يترجم شعوره بأناقة وتأنٍ وذائقة , لايعبث التصرف , بل ينطق بحكمة وروية للتعبير بنفعية الخطاب الموجَّه , والبيان المُرسل ؛ ليعالج قضايا مرفوضة أو يحتج عليها , ومنها ماتؤنسه فيطرب لها . وشاعرنا المعاصر المغترب أديب كمال الدين الذي اختط لشعره طريقاً يعبر به بأسلوب العصر ؛ معالجاً فيه قضايا أبناء وطنه تارة والظروف القاهرة التي تعصف ببلاده جاعلاً من حروفه ونِقَطه وسيلة التعبير عن تجربته تجاه هذا الواقع ، لكن برمزية عالية تجاذب معانيه بوسيلة المجازات والرموز محلقاً في فضاءات المقدس , وفي كهوف المدنَّس , وهو يلامس الواقع الذي تفشت فيه عناكب تلك الكهوف مذكِّراً بالمثال المُطلق من خلال تمظهراتهما ؛ لتشيع الصورة ؛ وتتكامل لديه الرؤية.

والدراسة تناولت تمهيداً لقضية الإبداع الشعري وآلياته , ثم قسمت الدراسة على مبحثين هما المقدس والمدنس , تضمنت مضمونهما مجموعة الشاعر (في مرآة الحرف) ، إذ شاعت فيها موضوعات الخير والشر والصراع القائم بينهما , ثم خاتمة بأبرز النتائج .

وقد اعتمدنا في تحليل النصوص منهج القراءة والتلقي ؛ لإضاءة النصوص من خلال تأويلها ؛ كونها مكتنزة بثقافة الشاعر , ولاسيما في الوجهة الصوفية التي كرَّس معظم أشعاره وهو يرفدها بالإشارات المحيلة على المعاني المضمرة خلف نصوصه؛ مما جعل الدراسة تنساق خلف ترميزاتها التي تمنح المتعة عند الاستقراء لها من طريق رؤية الشاعر الشعرية .

ومن الله التوفيق

التمهيد :

لعل الفكر الإنساني في حالة من التطور والتجدد تبعاً للمحيط الذي يتداركه ؛ ليتدارك هو الاخر حتمية المتغيرات , ويقفز فوق أذرعها , فيما يطلق عليه بالعقل الكلي أو الشعور بوصفه العنصر الأول والأقدم , وإنْ كان له وجود مستقل عن المادة ؛ لذا توجب عليه أن يتمظهر بالإبداع الذي يعود إلى عوامل ذاتيه مركزها الفكر ؛ لذلك نجد الفنان يخلق " أثراً هو بمنزلة علامة على روحه ، تلك الروح التي ليس طابعها قومياً ولا تاريخياً " [1] ؛ لما للمعرفة الإنسانيه من اغتناءات " بأفكار جديدة جسدت نفسها في الفن والأدب , وكانت تصدر عن الفكر المثالي في رؤيتها للفن والأدب بأنهما يرتفعان عن المجتمع والطبقات الاجتماعية " [2] ؛ لذا نجد أن الفكر حرٌّ طليق , لكنه يعالج , بل يدافع , ويضطرم , ويصطخب للروح التي يسكنها , فيذود عنها , وتلوذ به حد الذوبان .

ويبدو أنَّ المتغيرات الحضارية ، هي أكبر من ذلك الذي حدث في العالم القديم , بوصف الحضارة التي تسيطر عليها الكلمة تتغير إلى حضارة يسيطر عليها الرقم . ولعل مانطق به (ت س اليوت) وهو يعرّف الشعر الغنائي بأنه " صوت الشاعر الذي يحاور نفسه , أو لا يحاور أحداً أبداً , وأنَّه تأمُّل داخلي , أو صوت قادم من اللاشيء بصرف النظر عن احتمال وجود متحدث أو مستمع " [3] ، إنَّه الناطق من اللاشعور أزاء حاله شعورية يرهص بها وجدان صاحبها .

ولما كان الإنسان يرتبط بقيمه , أو بشخص , أو بمذهب , أو زعم , إذ أنَّ الانسان " ليس حراً في أن تكون لديه أو لا تكون لديه (مُثُل) ، ولكنه حرٌّ في أن يختار بين أنواع مختلفة من المُثل , بين أن يكون متفانياً في عبادة القوة والتدمير وأن يكون مخلصاً للعقل والحب " [4] , فالفنان ولاسيما الشاعر ، وهو يذود عن بقائه يعود إلى حياة الإنسان الأول في العالم المقلق عندما يكون ذا نمط وحيد القطب وموجَّه " باتجاه واحد لاختيارات فيه لعدم وجود حلول متعددة , والحل كان وحيداً ، وكل مافي ذلك العالم المطلق كان حقائق صحيحة لا مبتذله , ومن ثم لا وجود هناك للخطأ , والإنسان مبرمج عن نهج واحد لا تنوع فيه , والاختيار ما هو إلا ظاهرة فكرية عقلية من سمات الوجود للمخ , ومن صفة المادة التغيُّر , لكن العالم المطلق كان خلاف ذلك " [5] تلك المنطقة التي تحاور الذات نفسها وتستجلي الحقيقة , بعدما تأنف الروح واقعها , إذ لابد لها من عودة إلى عالم الفطرة الأول (عالم المطلق) اللاشعوري ؛ ليقترح عليها روح الفكرة المطلقه والعقل المطلق الذي به تستبان وتتكشف عن طريقها رؤية القلب واستبصاره وبامتزاجها مع عالم اللاشعور الدفين ؛ ليتصدى لكل ما يعتمله بالكلمة الناطقة والحرف الوضيء ، والنقطة التي تلج كيان الكون في فضاء شعرية الشعور .

والإبداع هو ليس وصف لليوميات في الواقع , إنما هو ترجمة ما يموج من شعور في الذات العميقة ؛ لذا فالكلمات يحددها حيز ما , ولعلها الكلمات مرهونة للعالم الخارجي وتأثيراته , فهي كتعبير , مرجعها اضطراب العالم الداخلي للإنسان , فهي ألوان الكون الداخلي لذلك الإنسان الذي تعاد فيه الأشياء , فيصير نقاطاً لرحلات خيالية لا متناهية [6] .

الركن الأول

المقدس

إنَّ المقدس المطلق شغل الدرس الديني والتاريخي والسايكولوجي والفلسفي على السواء . والإنسان قد قطع أشواطاً عبر القرون ؛ لفهم ذلك المقدس الذي قدسته المخلوقات عبر الأساطير حتى شملت جميع أزمان الضمير الإنساني بوصف الروح تنعتق في معظم أوقاتها ؛ لتتجرد عبر الفكر مختزلة عوالم الدنيوي إلى العالم المطلق الذي " يتضمن عوالم أخرى ربما كان منها عالم الروح الذي يشغل بعضاً من أبعاد العالم المطلق " [7] , ولعل الديني بوصفه تجربة روحية ذاتية , فهو التصور الذي يمثل مركز اهتمام جميع الروحانيين في كل الأديان والثقافات ، لكن التجربة الشعرية لدى معظم الشعراء تمثل ثورة ضد هذه " المؤسسة الدينية التي حولت الدين إلى مؤسسة اجتماعية مهمتها الحفاظ على الأوضاع السائدة ومساندتها من خلال إنتاج آليات معرفية ثابتة , يقف على رأسها الإجماع ويليه القياس " (8) والخلاف ليس في منابع المعرفة كالقرآن والسنه , إنما الخلاف يتمثل في ترتيب آليات استنباط المعرفة وإنتاجها من هذه المصادر ؛ لذلك يرى من يدخل أعماق ذاته من الفنانين , ولاسيما الشعراء , يجد أن التجربة الروحية الشخصية والذاتية , هي أساس المعرفة وهي الملاك الذي يتمرأى لدى الشاعر المنتج للفضيلة في أشعاره.

و يبدو أنَّ الجوانب الروحية في الشعر يجب أن تكون بمستوى المسؤولية في أي مشروع للنهضة , اذ ليست الأفكار العلمانية " في جوهرها سوى التأويل الحقيقي والفهم العلمي للدين , وليس مايروج له المبطلون من أنَّها الإلحاد الذي يفصل الدين عن المجتمع والحياة " [9] , فالروح المستقرة هي من ترفع ألوية الملاك في داخلها , وما ذاك إلا ألبوم القيم والمعاني السامية التي غرست داخل النفس الانسانية المطمئنة , فيقوم الشاعر باستنهاضها كقوة طرد لما يعتمل الذات الانسانية من هواجس تكاد تقضي على أنظمة الحياة المشعة الرؤى بنور الانسانية وفضاءات الوجود الحقيقي للحرية التي أرادتها القوة المطلقة ؛ لتنعم الحياة باستقرارها ورضى كينونتها في العالم الخارجي والتكويني ؛ لذا فالنص الشعري مهما كانت مدلولاته وتأثراته بالمحيط الزمني والتاريخي يبقى نصاً فنياً وليس وثيقة اجتماعية أو سياسية ؛ كونه ينبع من ذات واعية تعبّر عن معانٍ ودلالات ذات نظم فكرية شاملة , تتعالق مع فكر المتلقي الذي هو أيضاً يعيش الدراية الفكرية المطلقة إذا

ماكـان مستعداً لأن يقابـل الـنص المُلقـى بفكـر مطلـق استقبلَته ذهنيتـه التـي آثـرت النهـوض بـدل الانحبـاس , والانطلاقـة من دون التحديد ؛ لمـا يجهر بـه الواقـع الـذي يـروم التـأثير علـى الفكـرة , ويمحـو بادعائـه سطوة الجزئي من دون الكلـي ، وهذا متـأتٍ فـي تـرويج الفكـر البراجمـاتي علـى الروحـي الـذي يهوم علـى الشـعراء وأصحاب الذائقه الفنية المتعالية.

ويبدو أنَّ الشاعر "حين يكون في وحدته عند نظمه القصيدة يعتريه حنين غامض لتراث الأمم الـديني لـيس للنموذج التقليدي القديم حسب , وإنما للاطلاع على قيمتها بوصفها قراراً إنسانياً " [10] , ولعل كل ماهو جليل يمكن أن يبعث على الارتياح وعلى تقبل النفس له بكل مكوناتها ؛ فومضـة الرضـا تعلو فـي أفضـية الـروح ، فتهتز انعتاقاً وأريحية ، وإنَّ إنسانية الإنسان تتبلور في تعامله مع مظـاهر المقدس التـي يستشـرفها بـل ويعمـل على توثيقها في أشعاره . ولعل الشاعر أديب كمال الدين ، وهو يطالعنا بأشعاره نراه متوهجاً بالغذاء الروحي ، وهو يغني للإنسان ، إذ يقول :

هذه أغنية أعددتها لك
أغنية بسيطة جداً
وقصيرة جداً
أغنية تتحدث
بشوق كبير عن الحاء والباء ,
وتحاول بأصرار كبير
أن ترسم لها جناحين
وعشَّاً في آخر المطاف
عشَّاً يكفي لبيضة طائر منفي
لا أمم له
ولا عنوان . [11]

نجد أنَّ الأمل يوشك أنْ يتسرب إلى روح الشاعر من خلال نوافذ متعددة ، وهي الأغنيـة التـي تتحـدث عـن الحب , في (الحاء والباء) بعدما تحاول بإصرار أن ترسم لها جناحين ، وعشَّاً فـي آخـر المطـاف ، وهـو يشـير إلى أهم مظهر يكلل الحياة بالبقاء ، وهـو مـا نـراه فـي المـلاك ، إذ يـدعو إلـى الديمومـة والبقـاء ، وينشـد الحيـاة الآمنة لبني الإنسان .

و الاغتراب وهو من الظواهر الوجودية التي فعلت فعلتها بالشاعر فأخذ يتأسى بالحب ؛ ليخفف عبء المعاناة ذلك الحب الذي يجوس روحه , فهو يروم عشَّاً ناعماً صغيراً يكفي لبيضة طائر منفي فقدَ هويته , فليس له من اسم و لا عنوان .

والراجح أنَّ الشاعر يتعامل بشفافية الإنسان تلك القيمة التي لم يجدها في بلده ، فراح يبحث عنها في بلاد الغربه ؛ ليقي الشرور , يقول تيلش " الحبُّ هو الكلمة التي أحبها للتعبير عن إبداع الروح ... الحب ليس عاطفة جياشة , إنَّه دم الحياة , قوة وحدة المنفعل , القوة بدون حب تفضي إلى الانفعال والإدانة والسيطرة على الضعيف , إنَّ الحب يوحد المنفعل " (12)

ويبدو أنَّ الشاعر يحاول في نصوصه المقارنة بين صور الحياة ومايعتملها , ولاسيما عنصري الخير والشر ؛ ليبين الفرق بين كلا الحالين مذكِّراً بالأبهى والأجمل ؛ ليعظ ويوجِّه , فهو يأنف الشيطان المتمثل في القردة والذئاب ذلك حتماً يفسد عليه مسرح الرقص , فهو يقول في المقطع الثالث من النص :

لكن لا ترقص رقصة القردَة
و لا رقصة الذئاب
فذلك يفسد النص حتماً
ارقص مثلي رقصة المتصوفة
أو رقصة الأيتام في الملجأ يومَ العيد
أو ارقص رقصة الغرقى
إن كنت بساق واحدة (13).

فهو يبحث عن راحته النفسية التي يجد عروشها في الطمأنينة وهدأة البال ، ذلك في رقصة المتصوفة ، إشارة إلى حب العالم المطلق الذي يستقبل صرة المتصوفة وصيحة الأيتام يوم العيد، أو غوث الغرقى الذين لاحول ولا قوة لهم سوى من يؤمهم حينذاك ببردته الزرقاء . فهو من خلال ذكره القردة والذئاب يقصد المستشري في حياتنا ؛ مما يسود الآن من الاستغلال والتسويف والشره الدنيوي وضياع القيم , يعد ذلك رقصة مزيفة ليس لها سوى المكر والزيف لا للتقارب والتصالح مع الروح ، بل الخداع والتضليل الذي هو من عمل الشيطان .

ثم يشير الشاعر إلى رقصة الأمل التي نجدها في منبره الإنساني وإلا فلاداعي للرقص حسب رؤية الشاعر, إذ يقول :

أما إذا كنت تكرهُ
كلَّ شيء حتى نَفسك
فلا ترقص على الإطلاق ,
اكتف بوحشيتك المُستقرة
و لا تحاول نشرها على الحبال
حتى لو استطعت أن ترقص
رقصة المحكوم عليه بالإعدام [14]

إذ نجده يرفض الوحشية أن تتمثل محافل الإنسانية , فلا يمكن أن ينسجم لونان متناقضان ، أو فكران متعاكسان , الأول ينسجم مع سماواته , بينما الثاني يتنافى مع سماوات غيره .

والشاعر في قصيدته يرفض الأفكار التي لا تتغذى من موائدها , بل تتسلق على جدر المنع ؛ لتتمثل ما لا يمكن أن يوسم بها , إشارة منه إلى أنَّ الحياة محكومة بنقائها, فليس من عالمها ما لايوافقها لوناً وفكراً ومعتقداً , فنراه يرفض كلَّ من يتمادى على غير حقيقته وإن كان متلوّناً , إذ لا ينفع تلوينه بعالم الحقائق الماثل في ذات روح الإنسان .

ويبدو أنَّ حلم الشاعر وهوسه بحرفه ونقطته المميزتين في أشعاره تمثلان رموزاً, بل نافذة يلج من خلالهما لرؤاه المتعددة الألوان . إذ نجده في قصيدته (أحلم أن تكون النقطة بحراً) , التي يقول في مقطعها الأول :

أحلم أنْ تكون النقطة بحراً
والحرف سفينة ؛
لأبحرَ في البحر الذي لا رجعة فيه [15] .

ويبدو أنَّ النقطة والحرف كليهما متلازمان ؛ ليحققا مداد الشاعر في رسم لوحاته الحالمة في خياله , وما ذلك إلا تمظهرات الجوهر الماكث في شعور شاعرنا متمنياً الإبحار في بحر لا رجعة فيه ، وهل للبحر إلا رؤية الشاعر لعالم الروح القدسية التي تبحث عن ملاذٍ آمن عبر البحار التي اتشحت بلون السماء ؟.

أما المقطع الثاني , فنجد الشاعر يحلم , فهو يقول :

أحلم أنْ تكون النقطة وطناً
والحرف سماءً ؛
لأعيش سعيداً

من دون غربان
تنعق برأسي أبد الدهر [16]

إذ نجده يحلم بوطن فوقه سماء ؛ كي يعيش سعيداً دون غربان في فضائها ؛ كون الوطن مقدسًاً , والسماء مدراراً بالروحانية والخير العميم ، بينما المتضايفان (أبد الدهر) يمثلان الديمومة بعالم مطلق خالٍ من المنغِّصات والشرور بوصفه من عوالم الملاك .

أما المقطع الثالث , فيقول فيه :
أحلم أنْ تكون النقطة سلاماً
والحرف حمامةً ؛
لأستقبل الصباح بالورود
بدلاً من أخبارِ السفن الغرقى في البحر [17] .

ولعل الهجرة التي دبَّت شرارتها في أذهان الشباب , فراحوا يتسابقون عبر البحار للهروب من هول الحروب التي تجاوزت مدياتها في البلدان العربية ؛ لذلك أشار الشاعر للسلام ، وهو مظهر متجلٍّ من مظاهر المقدس , وما السلام إلا حياة وديمومة و فضيلة ينعم بها البشر , ولعل حمامته التي تمثل السلام ما هي إلا رمزاً لفقدانه ؛ كونه يتمنى أن يستقبل الصباح بالورود.

ومجموعة الشاعر أديب كمال الدين (مرآة الحرف) تمثل شعر الممكن , فهو يخلق فيها معادلاً ثورياً باللغة , يخلخل البنية الثورية الموروثة ؛ ليجعل ظواهر الحياة النافعة والمتجلية ترتفع بالإنسان فوق واقعه المزري بإضاءات تشرق بالتمرد والانعتاق والحب ؛ لأجل السعادة ، وعدم الرضوخ والاستسلام ، ولعل الشاعر يركز على النقطة والحرف بوصفهما من رموز الكلمة , إذ أنَّ الكتابة الثورية ليست وقوداً ، بل هي النار التي لا تشتعل إلا في أعماق بشرٍ امتلأوا بالشمس وبعوالم الملاك , فالكلمة بوصفها إبداعاً لايمكن أن تحقق ربحاً للثورة بالأشخاص مالا يشكل جزءاً من إبداع الحياة , وإنَّ تغييرها في فكره جزء جوهريٌّ في كتابته وفكره .[18] فنجد الشاعر يبحث عن المغايرة حتى في شكل القصيدة وموضوعها , وهذا ما لمسناه في قصيدته (أين أنت أيها الحرف) , فهو يشغف بحروف الكلمات , إذ يقول:

سأتعلَّق بالحرف
أيّ حرفٍ كان
فقط ؛ لأخفي ارتباكي

فقط ؛ لأكفكف وقتي
فقط ؛ لأقضي ساعات يومي بهدوء
دون أن أسقط من النافذة إلى البحر . [19]

فالشاعر يؤكد على استقلاليته بالكتابة ؛ كون الكتابة هي نزعته الوجودية الثائرة على كل الظلامات , نجده يشد وثاقه ؛ ليخفي ارتباكه ، ويكفكف وجهه ، دون أن يسقط من نافذة ذاته إلى البحر الذي حمل , ويحمل آلاف التوجهات التي غرقت من دون ذكرى ، فهو مع حرفه يلاقي الأسى ؛ كونه الباحث عن الحقيقة ، تلك الحقيقة التي لايمكن أن يتوسلها إلا من أصرَّ على العيش لها ؛ لذلك ظل طريقها موحشاً , فهو يقول :

احتجَّ شاعرٌ ما على الحرف
قال : مالكَ والحرف ؟
فأريته قلبي مرميًا على قارعة الطريق
بكى واستدار ,
و نسي أن يقول : وداعا [20]

وما يجعل الشاعر يعيش ذلك التفرد في العذاب؛ وذلك لما يحمله من ثقل يدفع ثمنه ما لا يدفع عاقبته الآخرون.

إذ نجده يتطلع إلى شعراء كثر وبارزين , فهو يقول :

لا طاغور نفعني , ولا أليوت
ولا ديك الجن , ولا المعري
ولا الشريف الرضي , ولا المتنبي
ولا السياب , ولا البريكان
كلهم خرجوا من الحفلة
من بابها الخلفي
وهم يجرُّون خيباتهم الثقيلة .[21]

ونراه يذكر أعلام الشعر العربي والهندي المبرَّزين , وكل منهم يحمل همَّاً من هموم الناس , لكنهم ليس بوسعهم أن يحققوا أهدافهم , ولا أهداف أبناء جيلهم ؛ فوسمهم بأنَّهم خرجوا يجرون خيباتهم الثقيلة.

ونرى الشاعر يتساءل قائلاً :

6

علامَ إذن تتمسَّك بالشعر
هل ستخلق حرفاً جديداً
أم ستضيف هذياناً جديداً على السابقين ؟

7

الطبول كثيرة
والدموع كثيرة
والهيبة تتكرر كلَّ يومٍ بنجاحٍ عظيم .

8

أين أنت إذن أيُّها الحرف
تعال وانقذني من دوي الطبول [22]

ولعل الأفكار هي الآراء الكثيرة التي ليست لها سوى القرقعة والأصوات المتعالية الخاوية , بينما الدموع الكثيرة تشير إلى عدم تغيير الواقع على الرغم من كثرة الطبول ، بقرنية (الخيبة تتكرر كل يوم ...)

و يرى الشاعر في حرفه المنقذ من زعيق الطبول , ودوره الذي يمثل الآراء المتفاوتة التي لايمكن أن تؤثِّر على أفكاره التي التزمها ؛ كونها تعد من أقداسه الفاضلة التي يمكن من خلالها إحداث التغيير كما يرى .

والشاعر " يعدُّ الله في الأعين متعالياً عن الصفات البشرية ، بل صار مُنسَّباً إلى الصفات المثالية لدى الإنسان , وفي الفن لم يعد العمل الفني تجرداً من الحياة ... أو حسب تعبير جاينش: فإن الإدراك والإحساس الوجداني يتكاملان بشكل لا يقبل الانفصام في الاستغراق الفني " [23]

لذا نجد الشاعر حينما يعيش في عوالم المقدس يتكامل في إدراكه وإحساسه الوجداني وإن أثَّرت به أدغال الحياة إلا أنه يترجم إحساسه الوجداني من خلال إدراكه ؛ ليستغرق في الفن الذي يتمثل بأنماط معينه للتصوير فوق الواقعي ؛ لذا نراه يجهر بالمقدس ذلك الممثَّل في الصفات المثالية لدى الإنسان الفنان .

ويبدو أنَّ الشاعر لم ينل من بهجته وعنفوانه سوى الانكسار والخيبة ، ولعله يشير بتلك المقدمات للأنظمة السلطوية التي لا تحقق لمن أخلص لوطنه ولا تقدم له سوى الضياع ؛ وذلك لأنَّ القيم قد ديست , والمظاهر النقية قد انهارت ، و ماهي إلا تخرصات وأضغاث أحلام في بلدان تركت عزتها وقداستها ، وبدأت تلتجئ

إلى مفاتن الدنايا ، ومظاهر الحضارة المزيفة التي تلبَّدت بالجهل والتخلف , وحب المال والنساء بعيداً عن نقاء الملاك الذي تتوق له الأرواح المتعالية في السمو بدلالة نهايات مقطعه الأول الذي يقول فيه :

فسارعتُ إلى دخول البحر ؛
لأقبِّل حرفي المُقمِر
لكنني وأسفاه
غرقت في الخطوات الأولى [24]

بينما في المقطع الثاني نجده يقصد المقارنة بينه وبين إحداهن التي قالت له :

الشمس لا تفهم هذا
لا تفهم هذا
وأخذت تنزع مايوه السباحة [25]

مما يدلل على تفشي صور المدنس على حساب صور المقدس الذي كان يراه الشاعر إنَّ القانون والحكمة وهما من مظاهر الملاك المقدس ما يستوطنان الذات والوطن ، يبدو أنَّ الأمر ما عاد كذلك بدلالة نزع مايوه السباحة ، وهو الوسيلة للخلاص من الغرق . ولعله يشير إلى المتغيرات السياسية التي عجَّت بالبلاد ، فكان الشاعر يرى أنَّه سيستقر في بلده بعد تغيير أنظمة الدكتاتوريات , لكنه فوجئ أن الوضع الجديد لا يمكنه أنْ يلبي إلا مراتع الفساد والمفسدين . إذ يقول في مقطع القصيدة الثالث :

في اليوم الثالث
ذهبت إلى البحر
لم أجد القمر
ولم أجد الشئ
ولم أجد المرأة
بل وجدت البحر كما هو دون زيادة , أو نقصان
هل كان أسودَ ؟
نعم .
هل كان أحمرَ ؟
نعم .

هل كان أزرق ؟

نعم , نعم , نعم

ثم التفتُ , فوجدتُ البحر قد أحاط بي

وهو يحاول أن ينتزع حرفي من يدي

أعني قصيدتي من يدي

وأنا أجلس وحيداً فوق سريري ألفُّ

في غرفتي الضيقة

أجلس مجهولاً

كحاله غريق [26] .

إذ نجد المنافذ قد أُغلقت دونه , فلم يجد حركة للحياة لا في المقدسات , و لا حتى في مظاهر الحياة الدنيئة ؛ لذلك جلس مذهولاً كحالة الغريق ، إذ ليس له من ناصر و لا مُعين .

وفي قصيدته (قال الذئب : انا هو البحر) , نجده في مقطعها الحادي والعشرين يقول :

كُلُّ حرفٍ

لايتبسمل بمحبَّةِ الذي يقول

للشيء كن فيكون

ليس بحرف

هذا ما قاله الشاعر الذي أقاموا له

تمثالاً كبيراً من الحسد والكراهية [27] .

فالبسملة بداية كل كلام أو حديث ملائكي ؛ لذلك يجعل الشاعر من قصائده تحمل حروفها المقدسة التي تبشِّر بالقيم السامية , وهي تدافع عن الخير ضد الشر ؛ فوجد نفسه قد نصب له العداء بمظهر الحسد والكراهية , و هل الحق إلا طريق موحِش ؟

أما مقطع القصيدة الرابع و الأخير , فيجهر به بقوله :

أحلم أن تكون النقطة دمعة

و الحرف عيناً ؛

لأبكي مثل يعقوب ليل نهار

لعل اللهَ يكبُّ في قلبي

قصيدة يوسف

وقد عاد بحمامة نوح . [28]

نجد الشاعر يختم قصيدته بمقطع مأساوي ؛ ليبين لنا مادهمه من معاناة جعلته يبصر لنا أنَّ حلمه كان نتيجة اضطهاد أخوته في بلاده , وهو يعيش مرارة الحزن ؛ نتيجة الجور الذي تلقاه منهم مشبهاً نفسه بيعقوب الذي كان يبكي ليل نهار على فقدان يوسف (عليهما السلام).. فهو يرمز بيوسف للوطن البعيد ، كما أنَّ حمامة نوح مثلت رمز السلام إزاء الطوفان والعودة إلى بر الأمان للمساهمة في الإعمار من جديد ، وهكذا يطلعنا الشاعر على أنَّ رموز المقدس تتعرض في كثيرٍ من الأحيان إلى المعوقات الكبيرة بيد أنها تتجاوزها بعد كدحٍ ونضال .

و طائر الحرية وجه من وجوه الإشراق الروحي لدى الشاعر , الذي يرى من العدل أنَّ المعرفة لابد أنْ تكون في كل حقول الحياة وأوجهها ، إذ أنَّ جميع الأشياء لا بدَّ أن تفهم ؛ لتعي وتعمل على وفق ما أشارت إليه , ولعل طائر الحرية لابد أن يتذكر ماهو عليه وما ترتجيه النفوس , فهو يقول في قصيدته طائر الحرية :

-1

الحريةُ طائرٌ

ينبغي تعليمه الطيران !

-2

طائر الحرية ليس كباقي الطيور

فهو للأسف كثير النسيان .

-3

في القفص مثلاً ينسى نفسه ,

أي ينسى كيف يطير

فيقع مغشيَّاً عليه

قد يبكي , فهو رقيقٌ

و جميلٌ وبريء . [29]

في المقطع الثالث يصور لنا أنَّ طائر الحرية , ينسى كيف يطير, و هل يمكنه الطيران إذا ماكان أسيراً , فهو ليس بمقدوره ذلك , إشارة إلى الأحرار الذين يُكبَّلون في قيود السجون , إذ ليس لهم من قدرة على تحقيق

ما يمكن تحقيقه ؛ لذا ينسون معنى الحياة ؛ وروافدها و حتى معانيها , وإن كانت أحلامهم هي من تنسيهم ظلامات السجون .

ويعود مره أخرى في مقطع القصيدة التاسع , ليشير إلى أنَّ الحرية لا يمكن أن تعرف إلا بأضدادها ، و هل يُعرف النهار إلا بالليل ؟ أو اللون الأبيض إلا باللون الأسود ؛ لذا فطائر الحرية لايمكن أنْ يؤدي معناه إلا بنقيضه , فهو يقول :

ماذا تنفع الآه
ياطائر الحرية ؟
لابدَّ أن تأخذ خطك من القضبان ؛
لتعرف معنى حاء الحلم
و حاء الحب
و حاء الحنين
و حاء الحقد
و حاء الحرمان
لابدَّ أن تأخذ خطك من القضبان
أ تعرف معنى اسمك ؟
لابدَّ أن تأخذ خطك من القضبان ؛
لتعرف معنى الله [30] .

فهو ينهي قصيدته بمعرفة معنى الحرية التي ترمز إلى طائرها الذي يعرف من الأشياء مقدماتها , فالحب , والحنين , والحقد , والحرمان جميعها تتولد حينما يأخذ الإنسان حظَّه من العبودية ، أ وليست القضبان ، هي رمز للحجز والحجب عن عالم الحياة , ومن ثم أنَّ الله هو الحياة ؟ فحينما يشتد بنا الضيق نعرف الله ناشدين منه الحرية التي تمثل أهم رموز المقدس التي لو نالها الإنسان ؛ لتمتع بجميع وجوه المطلق .

ومظاهر الطبيعة كانت من مقدسات الإنسان الأول , والشاعر هو من يتوق إلى عالم البدء ؛ فيرسم هواجسه ؛ ليكافح بها مايثير حفيظته , ولعل البدايات الأولى لدى الشاعر الحديث ، هي ما تمنحه سعة الأفق و اكتناز الرؤيا ؛ كون العوالم الأولى عوالم غير ملوثة ؛ لمكوثها في أعماق النفس الإنسانية , فيلجأ الشاعر بوصفها عدَّته التي يجادل بها ويذود عن حومته ، ويفتي بآرائه التي تكاد تكون مضمرة في كل النفوس الإنسانية , فتتوالد بها القناعات وتصبو لها الذمم ، فالمعبودات الدينية تقع في سند "ماهو سماوي , وما هو

أرضي , وما هو جنسي , وما هو حيواني ، وما هو بشري ، وما هو إلهي " [31] , إذ نرى الشاعر يمازج بين ما هو أرضي , وما هو سماوي ، فنجد في قصيدته ثلاث صور :

1

على صفحة البحر الهادئة حدّ الموت

رسمَ القمر صورته البيضاء

كاملة العري

ذُهلتُ , وأنا أقف على الشاطيء

إذ رأيت حروفي رسوماً على صورة القمر

بكامل البهجة والعنفوان

فسارعتُ إلى دخول البحر

لأقبِّلَ حرفي المقمر

لكنني وآسفاه

غرقتُ في الخطوةِ الأولى .

2

في اليوم الثاني

ذهبتُ إلى البحر

فرأيتُ الشمس بكامل أنوثتها

وهي تسكب لون حرفي الأحمر

على زرقة البحر

لوَّحتُ للشمس بيدي

ثمَّ صرختُ مهلِّلاً بها

ثمَّ بدأتُ أرقص رقصتي الصوفية

ضحكَ الناس ، وهم يرتدون المايوهات

من تلويحي , وصرختي , ورقصتي .

و اقتربت منِّي إحداهن

قالت : لمن تلوِّح ، و تصرخ ، و ترقص

قلت لها : للبحر : أعني للشمس

ضحكتْ , وقالتْ :

الشمس لاتفهم هذا

بل تفهم هذا

و أخذت تنزع مايوه السباحة

فانحنيت للشمس

وقد امتزج دمُها بالبحر تماماً

3

انحنيت بتحيَّة الوداع ثلاثاً

ثمَّ التفتُّ ؛ لأجدَ المرأةَ

قد تعرَّتْ تماماً

فالتفتُّ مرَّةً أخرى

وأنا أبحثُ بعينين دامعتين عن الطريق

هل كان طريق النجاة أم كان طريق الغريق . [32]

يبدو أنَّ القمر والشمس هما من رموز الشاعر المقدَّسة ، فالقمر اتُّخذ قياساً للزمن , فهو كان في غالب الظن يهيمن على المناخ , فينزل من السماء المطر والثلج , كما أنَّ الديانات البدائية جعلت من الشمس سيدةً على دولة السماء ؛ لذا كان سيرها محدداً لفصول البذور والحصاد , وقد أدرك الإنسان أنَّ حرارة الشمس هي العلَّة الرئيسة فيما تدره عليه الأرض من خيرات , فعُبدت الشمس العظيمة ؛ لأنَّها بمثابة الوالد الذي نفخ الحياة في كلِّ شيء [33] . كما يرى من البحر أنَّه من المقدَّسات القديمة , و قد عدَّه الشاعر هو ما يلبي بها نداء المقدس , ففي المقطع الأول يسارع بدخول البحر , بينما في المقطع الثاني بدأ يرقص رقصته العبادية الصوفية . أما في مقطع القصيدة الثالث نجد الشاعر متحيراً من ضبابية الطريق ، وقد اختلطت لديه الأوراق ، فما عاد يميز بين الطريقين للإغواء الفاحش الذي ساد الحياة نحو طريق الضياع.

ومن رموز المقدس جلال الدين الرومي ، وهو أحد أعمدة التصوف الإسلامي ، إذ اتخذه الشاعر رمزاً ملائكياً , وذا أسرارٍ مهمة ، لاسيما في ألوان العبادة التي لايعرف رموزها إلا المتصوفة , فهو يقول في قصيدته (بعد أنْ) في مقطعها الأخير :

بعد أنْ مات جلال الدين الرومي

تركَ لي سِرَّاً وصيَّته الهائلة ,

قال أيُّها الحروفي

صلِّ صلاة الحُبِّ

صلِّ صلاة الحاء والباء

في الفجر نقطتين

في المغرب ثلاث نقاط

في الليل قم فارقص

حتى مطلع الفجر

رقصة الطائر الذبيح . [34]

نجد هناك من الإشارات التي تمثل للشاعر انطلاقته نحو رموز الملاك منها : جلال الدين , و الحب و الصلاة , و لعل الرقص كان في بداية الأمر لون من ألوان العبادة التي تمارسها النساء في المعابد ، فيرى ول ديورانت أنَّ الرقص كان قد قصد إلى الإيحاء للطبيعة وإلى الآلهة؛ وذلك بحثِّ الطبيعة على وفرة النسل , كانوا يؤدونه أساساً بالتنويم الذي ينتج عن الرقص ، كما أنَّه نشأ من الطقوس المقدَّسة [35] , أما الطائر الذبيح ، فهو أيضاً يمثل الأضحية فـ (النشكونية) ترتبط بأضاحي التكوين ؛ " ولكي يستمر تكوين (منزل , معبد , عمل , تقنية ... الخ) يجب أن ينعش , ويعاد إليه تلقي حياة و روح في آنٍ واحد " [36] ، و رقصة الطائر الذبيح حينما نراها في الواقع هي حركات طائر مألوم , بيد أنَّ الشاعر يقرؤها بأنَّها رقصةُ عبادة , مثلت قمَّة التضحية بالدم للقوى الغيبية المقدَّسة .

نستشف أنَّ الشاعر قد تناول رموز المقدس ، وهي من الوفرة ، لكن في عصرنا نجدها تضمحلُّ في النفوس ؛ لطغيان شراك وحبائل الشيطان في كلِّ أرض تركن بها النفوس ؛ لاستشراء الخطيئة التي عجَّ بها عالمنا ؛ نتيجة النزعة المادية المستشرية بفعل ما قد أفرزته العولمة من أفكار ؛ ولما للظروف الاقتصادية التي تولدت نتيجة الحروب واستشراء الفساد السياسي الذي عمَّ بلداننا بعدما كانت ترفل بالمقدس الروحي والملائكي .

الركن الثاني

المدنس

لاغرو أنْ نرى الحياة الجديدة بأزيائها التي باتت تنتسب إلى غير ثقافتنا , فماهي إلا مظاهر تزيد الإنسان قلقاً واغتراباً وبُعداً عن جذوره التي ترسَّخت في لا وعيه , إذ أنَّ " نهاية ضبط تناسق الحركة والأفق المشترك لثقافة ما لايتأتى من نسيان الثقافة للدين فحسب , بل مما تدَّعيه من قيم جديدة , ومراجع جديدة

متناقضة لتلك الموجودة لدى الديني , واليوم يدين الديني بالثقافة الوثنية الجديدة " [37] , وقد ماجت الروح الإنسانية المتطلعة بأبعاد ارتباطاتها التاريخية والسايكولوجية أن ترى من المثير لحركة العولمة وتأثيراتها عبر وسائلها الجديدة التي أماطت اللثام عن أهدافها في تهديم بنية الإنسان العربي المسلم , وما يعتد به من قيم سامية باتت مهدَّدة اليوم , إذ نجد تفشي ثقافة لاتمت للسماء بصلة , و لا للقيم التي اعتزَّ بها العربي من جهة أخرى.

ولعل حركة الثقافة في كثير من الأحيان لاتصطدم بالديني ؛ كونها كفيلة برقي الإنسان ؛ لأنَّ الثقافة " تتمتع باستقلال ذاتي بالنسبة إلى الديني : إنَّ التغيرات التي تطرأ على التدين وعلى موقف حيال الدين تسبق التغيرات الدينية بحصر المعنى ... أي تغيرات لن تكون نتيجة الإصلاح الديني بقدر ماهي من موجبات الإصلاح " [38] , إذ لايمانع الدينُ الإصلاح إذا لم يمسَّ حرية الإنسان على وفق ما يريد , أو تعرَّض ما بمزاوله من خيرٍ لمكروهٍ أو أذى .

ويتجلى المدنس بصور متنوعة , منها : الانحلال الأخلاقي , والتخلف , والممارسات العليا التي تعبث بمقدرات الشعوب , فتصادر استقراره , والانتهاكات التي تقوم بها الدول الاستعمارية تجاه الشعوب المغلوبة , وممارسة ألوان الاضطهاد بحقِّها , فمنذ نشأة الخليقة كان الاعتقاد بالآلهة التي كانت هي سبباً في إنزال سخطها على بني البشر ممن يتمرد على دساتيرها, فكانت ترسل الصواعق لعقاب من يعبثون أو يهددون نظام الجماعة , و لا يعيرون أهمية للآلهة [39] ؛ لذا فالعودة إلى البيئة التي خزنتها ذاكرة اللاشعور هي مرساة الإنسان ؛ في التعبير عما يعتمله في حاضره ؛ مما يجعله يظهر بعض نماذجها بصور معاصرة ؛ لينقلب على شاذها و كل ما لاتقبله الذائقة إذا ما كان يدافع عن روح الجماعة .

ويبدو أنَّ تطور العلوم أورث إنسان عصرنا نزعة فردية , ومشاعر اغتراب بإزاء تشابك المعاني , وكثرة العراقيل والصعوبات التي صارت حاجزاً عن الاتصال الروحي [40] , لكننا نجد عند شاعرنا الذي انغمست روحه الشرقية بدعائم المقدس يحاول أن يرتقي بما حوله , فنجده يمازج بين الخير والشر , الذي يمثل نمذجته لبعض الشعر كمظهر جلي للإنسان الحاضر الذي يعيش صراع الذات والموضوع .

ومن مظاهر المدنس في شعر شاعرنا في قصيدته (قال الذئب : أنا هو البحر) التي يقول فيها :

كان الذئب يمشي على شاطيء البحر
حين استغاثَ به الغريق
ضحك الذئب مما يرى

لكن الغريق صرخ :

انقذني من البحر !

ضحك الذئب ثانيةً وقال :

أنا هو البحر ! [41]

فالشاعر يترجم لنا إحساسه تجاه صورة الذئب ، فيرسمه بصورٍ تأنفها النفس الإنسانية ومنها صفة المكر , فهو يرمز إلى الخداع والغدر , و هما ضدان لصفة الوفاء , فالمفارقة في النص هو أنَّ الإنسان حينما يحاصَر , يبحث عن منقذ ، لكنَّ المنقذ هو الخطر ذاته , كما هو الغريق حين تدهمه أمواج البحر , فيطلب العون ، لكنه يقع فريسة منقذه الذي جسَّد صورته الذئب , وكأنَّ الشاعر يتحدث عن لسان حال شعوب المنطقة التي حاولت الخلاص من الدكتاتوريات , لكنَّها وقعت في حبائل الاستعمار وقوى الإرهاب التي تتسم بالمكر والخداع . فصورة الذئب هي قناع للمدنس, ومظهر من مظاهره .

وفي القصيدة نفسها نجد صورةً أخرى , لكنَّها أتتْ في شقَّين : الأول : صورةٌ للمقدس ، و الآخر : صورة للمدنس , يقول فيها :

الحريق يتكرر

النار تبزغ هذه المرَّة

من النافذة أو من الجدار

لكنَّها ليست النار التي عرفتها

فالنار لبست ثياباً تنكريَّةً

لا يخرج منها اللهب , أو الدخان

لكن لسعتها بالطبع

أشد ضراوةً , و وحشية .[42]

لقد عرفنا أنَّ النار هي من الرموز المقدسة وهي من منبع ملائكي ؛ كونها المُطهِّرة في جميع الديانات ، لكن شاعرنا حاول أن ينتقل بها من المفهوم الأول إلى مفهوم معاكس بعدما ألبسها ثياباً تنكرية , أي أظهرها بصورة الأفعى ذلك الحيوان المراوغ القاتل , فهو من غوى حواء وآدم , وأخرجهما من الجنة إلى دنيا الرذائل , ويبدو أنَّ الشاعر يحذر أهل بلده من المخططات التي تفتك بهم , ومنها الطائفية , والأفكار الإلحادية , وسموم العولمة التي راحت تنخر بقيم وعادات وتقاليد أبناء بلده.

وفي مقطع القصيدة السابع نراه يقول :

طاردتني كلاب الدهر طويلاً في الصحراء
لكن مشهد القمر بازغاً سحَرَني
فوقعت قصيدتي فريسةً للمطاردة الوحشية
و التأمل الفضي . (43)

يبدو أنَّ المفارقة في النص هي وسيلة توسَّلها الشاعر ؛ ليجعل القاريء يعيش معه أفق توقعه ، لكن سرعان ما كسر ذلك الأفق عن متلقيه بالمتناقضات , فهو يصف القمر الذي تأمَّله , فكتب قصيدته , لكن سرعان ما وقعت تلك القصيدة فريسة لكلاب الدهر التي طاردته طوال مسافات الصحراء , واندماجه بتأمله الفضي الذي كان هو الآخر سبباً رئيساً في إغفاله تلك المطاردة , فضاعت عليه متعة الأنس التي وثقها في حروفه ونقاطه المُحبَكة في قصائده , فهو يشير من خلال ذلك إلى الأحلام التي يعيشها ، لكن النفوس البشرية المتقنعة بقناع الكلاب آثرت إلا أن تضيع تلك اللحظات التي تحط طيورها على نوافذ الأمل و الجمال .

وفي مقطع القصيدة الثالث عشر , نجده يصور الموت , ويعدُّه من مظاهر المدنس طالماً هو آخذ للأرواح , ومحزن للقلوب حين تفقد ذويها , فهو يراه في كل مكان مُبيناً محنة بلاده طالما الموت يبسط ذراعيه في كل مكان منه , نراه يقول :

صور الموت الذي يعرضها (التلفزيون) كثيرة :
الموتى في كلِّ مكان
في الشوارع , و المقابر , و الشقق السكنية
في , و في , و في
حتى بدأتُ أشكُّ بأنَّ هذه الصور
هي إعلان تجاري لشركة عزرائيل الكبرى (44) .

إذ يرسم صورة تمكُّن الموت وغلبته , فهو يراها في أماكن كثيرة مشبهاً لها باللافتات التجارية المجانية لشركة عزرائيل , في إشارة إلى أنَّ الموت في بلاده صار بالمجان , ويبدو أنَّه يشير إلى لافتات الانتخابات التي تمثل أيضاً الموت ؛ لأنَّ مآربها لاتحقق حلم الشعب , مشبهاً لها بشركات تجارية ودوائر اقتصادية لا تغني و لا تسمن . فهي تَعرِض صور ممثليها العاطلين عن بناء الوطن في الشوارع , و على حيطان الأزقة و والشقق السكنية .

أمَّا في مقطع القصيدة الأخير , فيقول :

لكثرة ما أرى الغربان في أحلامي
قرَّرتُ أنْ أصبغَ ليلي
باللون الأبيض [45] .

يبدو أنَّ طغيان صور الشيطان جعل من مخيلة الشاعر تكفهر , إذ طغت حتى على أحلامه؛ مما يجعله يروم صبغ ليله باللون الأبيض ؛ كي يتساوى بلون نهاره الذي يراه معتماً إلا من لونه الأبيض الحسي , و لعله يتظاهر من أنَّه القادر على الخلاص من عالمه و النزوح إلى عوالم أخرى , أو لعلَّه يزرع بذور الأمل معلناً تمسكه في الدفاع عن الخير , والذود عنه في سبيل الحرية , و لو كان هذا الخلاص بفسحة أمل , و إن كانت في الأحلام الضائعة .

و يرفدنا الشاعر بِحِكَمٍ مؤداها الاتعاظ من الوقوع في فجوات المدنس الذي يتمظهر لدى الشاعر بأشكال و صور متنوعة , إذ نجد في قصيدته (لا و لا و لا) التي يقول فيها :

لاتقترب من النار
فأنوارها خادعة كجسد المرأة .
لا تذهب إلى مدن الجسور و اللذة و البواخر
فالجسور محدَّبة .
و اللذة لغمٌ يطفو فوق الماء
و القبطان لا يكفّ عن شرب الكحول
و شتم العابرين ليل نهار
لا تلبسْ ,
و لو على سبيل المزاح ,
جناح الطائر
فالفجرُ قتيلٌ على عتبة الدار
و لا تُشاهد فلْمَ الدموع و الحرمان و المرايا السود ,
فقد شاهدته ألف مرَّةٍ و مرَّةٍ و مرَّه ,
و لم تفهم منه ,
أو من دموعه الثقال شيئاً . [46]

فمظاهر الخداع البرَّاقة تعوم في نصه مشبّهاً إياها بالنار التي تشبه جسد المرأة فكلاهما خادعان , و كذلك الجسور و البواخر اللتان تمثلان رمز التمدن و التحضر. ومن المُلفِت أنَّ الشاعر يكرر ذلك مثلما كرره السياب و سعدي يوسف وغيرهم بما اصطخبت به المدن من آفات الشياطين و حبائلها , فالشاعر أراد أن يشير إلى تفشي تلك المظاهر التي يعاني منها إنساننا المعاصر بسبب الأزمات السياسية , مومئاً بجناح الطائر إلى التغيير ، لكن هذا التغيير محبط الجناح طالما الفجر بات قتيلاً , إذ لايمكن لطائر الحرية من التحليق في فضائه .

أما الفيلم الذي يراه آلآف المرات , فمثّل موجة الأحداث المُحزِنة على مدى الأجيال , فهو يدعو إلى التغيير بالعزف عن تلك المشاهد لاعلى التربي عليها .

أما قصيدة (فجر أعمى)

1

طول حياتي

كنت أنتظر الفجر ؛ لأهربَ

لكنني انتظرت الهروب طويلاً ؛

لأنَّ الفجر كان يقضي معي

حُكماً بالسجن المؤبَّد

2

كُنَّا نعيش في زنزانةٍ واحدةٍ

هو يرتدي الملابس البيض

و أنا اتجوَّل في الزنزانة

عارياً تماماً .

3

كنتُ أراه

و أتلمَّس ثيابه البيض

في حين كان الفجر لا يراني ؛

لأنَّه باختصارٍ شديد

كانَ أعمى .

4

أعمى
ومحكومٌ عليه بالسجن المؤبَّد
ياله من فجرٍ رائع وعظيم .[47]

فالشاعر هنا يهجس بالفجر المفقود الذي يلحظ ظله يدخل عليه مع كل إشراقة في الزنزانة , فيعيش معه دون أنْ يشعر هذا الفجر به ؛ كونه يطلُّ على جميع المخلوقات التي تنعم بالحرية بوصفه مظهراً من مظاهرها , وطموحاً من طموحات طلابها ؛ لذا فالفجر يتجاهل من هم يبعدون عن واقعه ، ولا يشعر بهم إلا أن صاروا دعاة , فنراه في المقطع الأول يطمح للهربِ مع الفجر , وهل أذنت مراكبه ؛ لحمله إلى حيث الأمل المنشود ؟ ... إنَّ الظروف لم تكن مواتية في بوح الشاعر , هذا ما أشار له في المقطع الثاني , واصفاً نفسه بالعري من كلِّ شيء .

أمَّا في المقطع الأخير من القصيدة , فينعت الفجر بالأعمى ؛ كونه لا يراه , وهل الفجر يخوض حياته خلف القضبان ؟ و لعله يشير إلى ذاته التي يوسمها بسمات الفجر , فألقي في دهاليز الظلام , إشارة منه إلى من أسدلوا الظلام على أبناء الشعوب الأبية التي تبحث عن الحرية في الخلاص من جور الحكام المتغطرسين .

وفي قصيدته (جراحة أسطورية) ، يقول :

كان لي قلبان
مات أحدهما ؛
لأنَّ كلب الدهر قد عضَّه مُبكِّراً
أو لأنَّه سقطَ من درج الطفولة البريء
أو لأنَّ قطار الحرمان سحقه دون رحمة .
والثاني كان متورّماً
بالحزن الأسود
و القلق الأزرق
و العبث الأصفر .[48]

في كل إنسان قلبان حسب رؤية الشاعر هما : قلب الرضا وقلب السخط , فهو يشير إلى قلب الرضا بأنَّه مات بسبب عضَّة كلب الدهر له , ويبدو أنَّ الأساطير لم تبنِ أفكارها إلا على الثوابت التي آمن بها العقل

الجمعي , و ما إشارة (كلب الجحيم) [49] إلا خير مدعاة ؛ لأن نتخيل صورة الكلب الذي هو صورة من صور المدنس الذي يدهم عنصر الخير ؛ ليودي به ، فالشاعر يمنحنا عِدَّة توقعات ، فالأول السقوط من دُرج الطفولة ؛ كناية عن سقوط البراءة في المزالق , و الآخر هو الحرمان ، إذ لا ننسى مقولة الإمام علي (عليه السلام) : (لو كان الفقر رجلاً لقتلته) ؛ كونه هو سبب البؤس و المرارة و الحرمان .

ويبدو أنَّ الشاعر يشير إلى دواعي اضطراب النفس الإنسانية في هذا العالم المأساوي بمجمل وجوهه التي آثرت إلا أن تعيث بطموحات المواطن في عصرنا الحالي .

أما في مقطع القصيدة الآخر , فنراه يقول :

في صالة العمليات
نجح الأطباء في إزالة الأورام , وهم يضحكون
من غرابة الألوان
أسود , أزرق , أصفر .
وحين انتهوا من ضحكهم الأبيض ،
فَرِحتُ ؛
لأنني للمرَّةِ الأولى
صرتُ أضعُ يدي على صدري ،
صرتُ أضع يدي
على موضع القلب في صدري
دونَ أنْ أبكي [50] .

فهو يرى أنَّ الأمور التي تنتاب الإنسان يمكن تصحيحها , و أنَّ العنف والألم و الجراحات هي من صنع البشر أنفسهم , فهم القادرون على تغييرها و العودة إلى أصل الوجود حين خُلِق الإنسان في أحسن تقويم إذا ما استعاد عنصر الخير في ذاته, ومحيت بقية الألوان التي تسرَّبت بأفعاله , فالأسود , والأزرق , والأصفر جميعها تمثل تقلبات الحياة , و الخلاص منها لا يكون إلا مع الزهد بتلك الحياة , و كما قال الجنيد في تعريفه للزهد : إنه " خلو الأيدي من الأملاك و القلوب من التتبع " [51] , و لعل القلوب هي موطن القداسة مثلما هي موطن الدنس إذا ما ملأها صاحبُها أحد الخيارين , والشاعر وجد سرَّ ذلك بوصف اللون الأبيض و هو أصل الألوان , كذلك النشئ الأول بدأ بالخير , فهو سيد الأمان و الاطمئنان ؛ وقد وضعَ الشاعر يدَه على صدره ؛ كونه ممكناً لكل الأفكار , وقابلاً لجميع الألوان.

و الجسد يعدُّ مظهراً من مظاهر المدنَّس ؛ كونه لصيقاً بالدنيا و ملذاتها , و رسولاً لمفاتنها كالمال و البنين , فهما زينتها التي يمكنها إبعاد الإنسان عن عالم المقدس , وتلهيانه عنه كما يرى المتصوفة ؛ لذا نجد الشاعر يجري حواراً بين الروح و الجسد , فنراه يعدُّ الجسد هو من يغوي بوصفه موطناً وحاضرة خصبة لدنس الشيطان .

يقول :

قال الجسد للروح
سأقتصّ منك
سأعذبك بنار الشهوات
و أنين الحسرات
و ستنهارين
فاللذةُ أكبر من زمن العري الأكبر
و العبث الأكبر !
ضحكت الروح
و قالت للجسد المتفاخِر كالطاووس :
أنا أقوى منك ,
فأنت تهرم في كلِّ يوم
و أنا أتجدد أبداً كالضوء . (52)

فالشاعر يعزف على حقيقة أنَّ الجسد مخلوق من تراب , و أنَّ الروح من نور و هي متجددة أزلية ، بينما الجسد ، هو كيان زائل , لايمكنه التحدي والتطويل في عمر الصراع , و أنَّه المتلاشي طالما هو من مأوى الرغائب و الشهوات و الدنايا , بينما النور هو من يخلد بوصفه الأزل الذي به تُصنَع الحياة , فهو لحن الديمومة و الخلود الأبدي الناصع بالإشراق .

وقصيدته (حرف الطاغية) تعكس ما يعانيه الشاعر من الواقع المأزوم الذي يظهر فيه المدنس بأشكال من الوقاحة التي لاتدانيها بشاعة على مدى العصور , وأنَّ صوت الشعراء , والكتّاب , والفنانين , ومواقف المتصوفة , وسيرهم لم توقف نقطة نون الطاغية وجنونها , ويبدو أنَّه يشير إلى سيطرة الإعلام الغربي الذي تجاهل عمق حضارة العالم , وبات يستنكرها بأفعاله المشؤومة , فهو يقول :

حرف الطاغية حرف ملعون
حرف لم تستطع موسيقى بتهوفن و لا موزارت
و لا روايات فكتور هيجو
...
و لا دموع الحلاج
و لا مواقف النفري
من تخفيف نقطته الأنوية
و جنونها المستتر المفضوح ,
فهو يعربد الآن
بطلاقة مدهشة مُذهلة كونيَّة
بأربعين لغة ,
و خمسين قناة تلفزيونية ,
و ستين شاشةً أنترنيتية ,
و سبعين نوعاً من الأكاذيب والتُّرهات . (53)

يبدو أنَّ الشاعر يومئ إلى شيوع مظاهر الدنس التي تنكر جميع الفضائل ، ولا سيما ماتحمله الفنون والمذكرات والأشعار من موضوعات هدفها القيم العليا إلا أنَّ طغيان الإعلام الشيطاني الكاذب , هو من يتحكَّم في العالم اليوم .

و من قصائده التي يقارن بها بين المقدس والمدنس ، مشيراً بحروفه التي تحمل أسماء أبناء مختار القرية , و المختار في القصيدة , هو المتنفِّذ , إذ نتلمَّس فيها إشارات إلى البيئة التي تضم أشكالاً و ألواناً من الناس , و من تصرفاتهم , و يبدو أنَّه يشير إلى أسرة الكون التي تضم المتناقضات , فهو يقول في قصيدته (حروف و أبناء) :

حين مات مختار القرية
خلَّف ولدين جميلين
الأول سين
ممتلئاً كان بحروف الخير
زرع بستاناً للفقراء , وثلاثة أبناء

أضاف الأول للبستان نهراً ,
و أضاف الثاني بيتاً للغرباء
و الثالث أغنية و قصائد
هذا عن سين , وماذا عن صاد ؟
ممتلئاً كان بحروف الحقد ,
زرع مأدبةً للحرب , وثلاثة أبناء :
كان الابن الأول مجنوناً كغرابٍ ملعون ,
و الثاني مخموراً ليل نهار ,
والثالث يصرخُ ألماً في رأسه
حين يقرأ حرف الحاء أو الباء (54)

فالشاعر في قصيدته يميّز بين خطَّين : الأول نامٍ ، و الآخر لا يعرف سوى القتل والكراهية, فهو يشير إلى حال الأمة ، و هي تعيش في نقيض من المواقف مشيراً بالحروف التي تعد الكلمة هي الفاعلة والمؤثرة , فنراه يفرّق بين رمزين : الأول للفضيلة , والآخر للرذيلة التي تنسل رذيلةً ، فيرد معها الحقد و الحرب و الغراب و الخمر , و رفض للحاء والباء اللذين يمثلان كينونة الحب , مشيراً إلى بنية الكون و الصراع الأزلي الدائر بين المتناقضات (الخير والشر) فيه .

نخلص من ذلك أن صور المدنس تمظهرت في كل ما يومئ له ، أو يتصف به ؛ ليمثل صوراً للواقع المزري الذي حلَّ بمجتمعاتنا العربية في عصرنا الحالي ؛ لإظهار صور الصراع القائم بين الخير والشر منذ نشأة الخليقة وإلى يومنا هذا وأنَّ ديمومة أحد الطرفين هو الإنسان نفسه ؛ لذا فالشاعر من خلال صراع الأضداد يظهر لنا المأساة التي حلَّت بواقعنا والحلول التي يمكن أن نسترفدها للخلاص مما يمت للمدنس ، للعيش في رحاب المقدس .

الخاتمة :

فيما يأتي أبرز نتائج الدراسة :

1-تم معالجة خطوط الإبداع الشعري في التمهيد وآلياته ودواعي كتابة شعر الشاعر و هدفه من نشدان شعره .

2-اكتشاف الحنين الغامض لدى الشعراء لتراث أممهم ، فهو ليس على النموذج التقليدي القديم حسب ، إنَّما الاطلاع على قيمها بوصفها قراراً إنسانياً , فكلُّ ما هو جليل وملائكي يبعث على الارتياح وعلى تقبُّل النفس له بكل مكنوناته .

3-خلق الشاعر في مجموعته معادلاً ثورياً باللغة ، فنراه يخلخل البنية الكلاسيكية المتوارثة ؛ ليجعل في ظواهر الحياة النافعة والمتجلية بالإنسان مَخرجاً من الواقع المزري بإضاءات تلهج بالتمرد والانعتاق و الحب ؛ لأجل السعادة , ورفضه الرضوخ والاستسلام .

4-نجد الشاعر يصور كُلَّاً من المقدس والمدنس بعدَّة تمظهرات ؛ ليبين مدى الصراع القائم بين الخير والشر ؛ لينفذ من خلالها إلى غايته الأساسية من كتابة النصوص الشعرية .

5-تفشي النزعة الصوفية في مجمل قصائد الشاعر , فنراه يحذو حذو المتصوفة في رموزهم , ومنها الحروف والنقاط .

6-يحاول الشاعر أن يقارب بين التراث والمعاصرة , فهو في ماضيه الجمعي يتحسس تراثه , بينما نراه يستعمل ألفاظ التكنلوجيا ومظاهر العصر في نصوصة .

7-تلوح في آفق نصوصة كثير من الحِكَم والمواعظ ؛ ليبثها إلى متلقيه ؛ لما يرى من اندساس الظلام السائد والأخطار التي باتت تنتاب المجتمع ؛ لاسيما العولمة التي فغرتْ شرَّها في أرجاء العالم العربي الإسلامي .

الهوامش :

(1) محاضرات في النقد الأدبي ، د. بتول قاسم ناصر : 137

(2) المصدر نفسه :139

(3) الحداثة ، مالكم برادبري : 12/2

(4) النظرية النقدية عند أريك فروم ، د. قاسم جمعة : 64-65

(5) طبيعة الروح وأسرارها : 184

(6) ينظر: الإثم والكتابة : 9

(7) طبيعة الروح وأسرارها ، د. مخلص عبد الحليم الريس : 21

(8) هكذا تكلم ابن عربي ، نصر حامد أبو زيد : 24

(9) التفكير في زمن التكفير ، نصر حامد أبو زيد : 72

(10) النبوءة في الشعر العربي الحديث دراسة ظاهراتية ، د. رحيم عبد علي الغرباوي: 245

(11) في مرآة الحرف (شعر) أديب كمال الدين ، :11

(12) النظرية النقدية عند إريك فروم : 215

(13) في مرآة الحرف : 12

(14) المصدر نفسه : 13

(15) المصدر نفسه : 31

(16) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(17) المصدر نفسه : 31-32

(18) زمن الشعر ، أدونيس : 136

(19) في مرآة الحرف : 146

(20) المصدر نفسه والمصدر نفسه .

(21) المصدر نفسه : 148

(22) المصدر نفسه : 147-148

(23) تربية الذوق الفني، هربرت ريد : 160

(24) في مرآة الحرف : 92

(25) المصدر نفسه : 93

(26) المصدر نفسه : 94-95

(27) المصدر نفسه : 69

(28) المصدر نفسه : 27

(29) المصدر نفسه : 68-69

(30) المصدر نفسه : 69

(31) قصة الحضارة : 1/ 102

(32) في مرآة الحرف :92

(33) ينظر : قصة الحضارة ، ول ديورانت: 1/ 102-103

(34) في مرآة الحرف : 49-50

(35) المقدس والمدنس , مرسيا إلياد :46

(36) قصة الحضارة : 1/ 150

(37) الجهل المقدس ، أوليفيه روا: 198

(38) المصدر نفسه :199

(39) دين الإنسان ، فراس السواح : 82

(40) ينظر : محاولات فلسفية عن الكون والحياة ، د. عباس حمزة جبر: 158

(41) في مرآة الحرف : 19

(42) المصدر نفسه : 20

(43) المصدر نفسه :22

(44) المصدر نفسه : 24

(45) المصدر نفسه : 30

(46) المصدر نفسه : 35

(47) المصدر نفسه : 65

(48) المصدر نفسه : 87

(49) ينظر : معجم الأساطير والخرافات ، د. طلال حرب : 68

(50) في مرآة الحرف : 87-88

(51) الله والإنسان في الفكر العربي الإسلامي ، دكتور أحمد خواجة : 177

(52) في مرآة الحرف : 107-108

(53) المصدر نفسه : 120

(54) المصدر نفسه : 129 .

المراجع :

•تربية الذوق الفني , هربرت ريد , ترجمة يوسف ميخائيل , بيروت , دت .

•التفكير في زمن التكفير ضد الجهل والزيف والخرافة , نصر حامد أبو زيد , مطبعة مدبولي , القاهرة , ط2 , د ت .

•الجهل المقدس , أوليفيه روا , ترجمة صالح الأشمر , دار الساقي , بيروت , ط1 , 2012م .

•الحداثة , مالكو براوبري , ترجمة مؤيد حسن فوزي , دار المأمون للترجمة والنشر , بغداد , 1987م .

•دين الإنسان , فراس السواح , دار علاء الدين , دمشق , ط4 , 2002م .

•زمن الشعر , أدونيس ، دار العودة , بيروت , ط1 , 1978م .
•طبيعة الروح وأسرارها , د. مخلص عبد الحليم الريس , دمشق , ط 3 , 2006م.
•في مرآة الحرف (شعر) , أديب كمال الدين , منشورات ضفاف , بيروت ، ط1 , 2016م .
•قصة الحضارة , ول ديورانت , ترجمة زكي نجيب محمود , الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية , القاهرة , ط2 , 1956م .
•الله والإنسان في الفكر العربي الإنساني , دكتور أحمد خواجة , منشورات عويدات , بيروت – باريس , ط1 , 1983م .
•محاضرات في النقد الأدبي , د. بتول قاسم ناصر , مركز الشهيدين الصدرين للبحوث والدراسات , بغداد , ط1 , 1429هج – 2008م .
•محاولات فلسفية عن الكون والحياة , د. عباس حمزة جبر , دار الشؤون الثقافية , بغداد , ط1 , 2010م.
•معجم أعلام الأساطير والخرافات , د. طلال حرب , دار الكتب العلمية , بيروت , ط1 , 1420ه – 1999م .
•النبوءة في الشعر العربي الحديث , دراسة ظاهراتية , د. رحيم عبد علي الغرباوي , دار تموز , دمشق , ط1 , 2012م .
•النظرية النقدية عند أريك فروم , د. قاسم جمعة , منتدى المعارف , بيروت , ط1 , 2011م .
•هكذا تكلم ابن عربي , نصر حامد أبو زيد , المركز الثقافي العربي , بيروت , ط3 , 2006م